التاريخ من أسفل
في تاريخ الهامش والمهمش

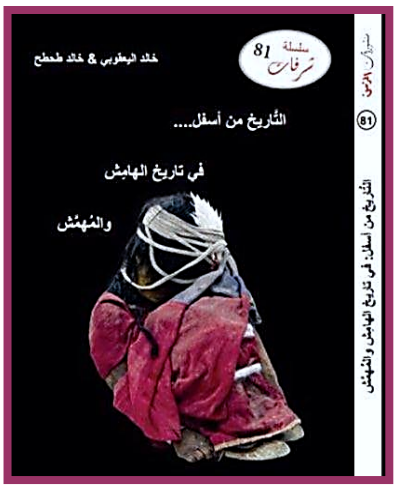

مولاي عبد الحكيم الزاوي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أستاذ باحث – جامعة القاضي عياض
مراكش – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

التاريخ من أسفل : في تاريخ الهامش والمهمش
منشورات الزمن - سلسلة شرفات (٨١)
نوفمبر ٢٠١٦.

تأليف:
خالد اليعقوبي
خالد طحطح

كلمات مفتاحية:
الاستوغرافيا البريطانية، الكولونيالية، مدرسة الحوليات، التاريخ الرسمي، المُهمَّش

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0045098

مدخل استوغرافي

يبدو أن مفهوم دراسات الهامش والمهمش أخذ يخترق باحة العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر ضمن سياقات استوغرافية أجنبية. ولسوف يبرز من خلال تحليلات عراب تيار الحتمية الجغرافية الألماني فريدريك راتزل، الذي سيلبسه رداء الفقر والتهميش المجالي، والأنتربولوجي كوبر الذي سيكسبه بعدًا ثقافيًا وحضاريًا. والحال سيمثل هذا الورش الجديد بمقتضى التجديدات المنهجية الحادثة في حقل التاريخ والمعرفة التاريخية آفاقًا واعدة لمختصي الزمن من أجل توصيف أكثف للماضي البشري، وعله اهتمام يعكس في جزء منه مركزية مفهومي الهامش والهامشية في كشف كثير من قضايا تحتجب وراء براديغم الحدث التاريخي الرسمي، وتقود نحو تأويل وتخصيب المعرفة التاريخية، بشكل يسهم في هدم وإعادة بناء الواقعة التاريخية من زاوية جديدة، بمفاهيم جديدة ومصادر جديدة.

وَلَئِن أثارت الباحثة إلين بارو اهتمام الباحثين في حقل التاريخ مبكرًا إلى أهمية هذا الحقل الواعد، وهي تهم بتفكيك المنجز الاستوغرافي لصاحب العمران البشري عبد الرحمان ابن خلدون، من خلفية نقل مركز الاهتمام في العلوم الانسانية من تاريخ صالونات النخبة نحو مطابخ العامة، فلأن واقع البحث التاريخي اليوم أضحى يفرض قراءة تجارب استوغرافية أجنبية حاولت تسليط مبضع بحثها على حياة البسطاء والمهمشين من أجل فهم مغاير لما جرى.

ثمة نقاش صاخب، يدور حاليًا غير بعيد عنا، داخل جامعات أوربية وأمريكية وحتى آسيوية، يسطع ويخبو، تبعا لتجاذبات الراهن الانساني، بين اتجاهات فلسفية وتاريخية وأدبية، يُعيد طرح قضايا خلافية ظلت لسنوات عديدة تتصدر واجهة مجلات التاريخ وأروقة مدرجات الجامعات. نقاش يُسأل مسيرة الإنسان في التاريخ، من حيث هي ذات منتجة للتاريخ، مستوعبة لشروطه، مُتحررة من وصايته وهيمنته، حسب جيرارد نوراييل[1]، وذلك بشكل يُسهم في إعادة بناء وتركيب الماضي بناء مفاهيميًا وإشكاليًا، فبين الانتصار لتاريخ البنيات والزمن الطويل الذي هيمن للحظات على مسار الكتابة التاريخية مع عرَّابي الحوليات والتاريخ الجديد، وبين العودة إلى تاريخ الأفراد وبيوغرافيات البسطاء الذي ظهر مع تجارب استوغرافية جديدة خارج فرنسا، يستوطن جدل ابستمولوجي واسع يخيم على ابستمولوجيا التاريخ.

ولئن عكس هذا النقاش في جزء منه صعوبة الإمساك بوقائع الماضي، وإعادة تركيب معطياته تركيبًا يقربنا من فهم ما جرى، فلأن هناك تداخلاً عميقًا بين المركز والهامش، العام والخاص، الكلي والجزئي، الأعلى والأسفل، يمتح أساسًا من تعقد بنية الأنساق الكبرى واختلاف الفئات الاجتماعية.

بعد مرحلة الكسوف والإقصاء المنهج الذي مارسته مدرسة الحوليات الفرنسية على تاريخ الأفراد والسرد والحدث، باسم الانتصار لموجة البنيات والأنساق الاجتماعية والاقتصادية، التي سادت ردحا من الزمن على الكتابة التاريخية[٢]. تُسجل اليوم عودة قوية للاهتمام بتاريخ المهمشين والبسطاء من الناس[٣]، عودة تعيد معها إلى الضوء الفرد كصانع للتاريخ، وكمركز للاهتمام والتساؤل داخل مختبرات العلوم الإنسانية. عودة إلى تاريخ عامة الناس حسب المؤرخ البريطاني إريك هوبزباوم[٤].

مورفولوجية الكتاب

ينساق تأليف "التاريخ من أسفل: في تاريخ الهامش والمهمش"، الصادر حديثا عن منشورات الزمن سنة ٢٠١٦م، لكل من خالد اليعقوبي وخالد طحطح، من حوالي ١٩١ صفحة من الحجم المتوسط، في سياق موجة جديدة، بدأت تقتحم تدريجيا مجال الكتابة التاريخية بالمغرب وخارجه، متشبعة برؤية منفتحة على تجارب استوغرافية متعددة، لكل من مدرسة الميكرواستوريا الإيطالية ومدرسة التاريخ من أسفل البريطانية ومدرسة الحياة اليومية الألمانية ومدرسة التابع الهندية ومدرسة شيكاغو الأمريكية، هذا التجديد المنهجي ينهل من تراكمات العلوم الاجتماعية وتناهجاتها، بحثا عن توصيف أكثف بعبارة الأنتربولوجي الأمريكي كليفورد كيرتز للظاهرة الإنسانية المركبة. ومن شأنه ذلك أن يُسهم في إخصاب حقل المعرفة التاريخية، معيدا إلى دائرة الضوء أولئك الذين عَمَّروا لقرون مديدة دهاليز التاريخ وأقبيته المظلمة وذاكرة النسيان، نحو ارتقاء سطح المعرفة التاريخية بتعبير إلين بارو[٥]، ففي عمق التفاصيل الصغيرة التافهة وأحيانا المبتذلة تكمن حقيقة جانب من التاريخ حسب مشيل دو سرتو. إنه باختصار ما يسميه آلان كوربان بالتاريخ الصامت[٦].

غير بعيد عن فرنسا[٧]، انتعشت كتابة التاريخ من أسفل أو تاريخ الهامش في بعض بلدان أوروبا الغربية، مع مدرسة التاريخ من أسفل الانجليزية، ومدرسة الميكرإستوريا الايطالية، ومدرسة التاريخ اليومي الألمانية. تناغما مع الطفرات المنهجية التي واكبت مسيرة الفكر التاريخي داخل هذه البلدان، وتوافقا مع تشكل قناعة، لدى باحثي هذه البلدان، بدور الأفراد في صناعة الأحداث الكبرى، وبتسليط الضوء على فئة اجتماعية ظلت على هامش البحث والتمحيص. إسهامات تاريخية جديدة، تطفو على الواجهة، تغزو الأسواق، وتغري القراء بخبايا مثيرة، وتثير فضول القراء، وتنسف مختلف" البرسبوغرافيات الكلاسيكية"، بمفاهيم وتصورات جديدة، بيوغرافيات خصبة، فرضت نفسها كحقل جديد لإحياء الذاكرة التاريخية والموروث المشترك، تتناول جوانب متعددة، مثل السير الجماعية، السير المتوازية، السير المتقاطعة، السير الفكرية، وسير الناس العاديين.

ومهما بدا للبعض من تجاذب بين هذه الرؤى، فإننا أمام توجه مختلف بدأ يفرض نفسه داخل مسار الكتابة التاريخية، في جامعات متعددة، بدرجات مختلفة، توجه يستشعر التعقيد الذي يميز ماضي الظاهرة الانسانية، ويعمق التفكير في الفردانيات وخصوصيات الحياة الخاصة لبعض الأفراد والمجموعات، ويعيد بناء نسق الأحداث التاريخية من زوايا جديدة، كما يعيد هدم الأصنام الثلاث المقدسة لقبيلة مؤرخي الحوليات. توجه يوصف اليوم بالانفجار البيوغرافي.

مضامين الكتاب

يطرح كتاب التاريخ من أسفل، في تاريخ الهامش والمهمش جملة قضايا منهجية وتاريخية تعتمل داخل مختبر التاريخ والعلوم الإنسانية، بتقسيم موضوعاتي يرتكز على أربعة فصول أساسية، يُحاول من خلالها باحثا الكتاب اقتحام مجال كتابة التاريخ من أسفل من حيث غائيته، أدواته، وأيضًا استعمالاته. كل ذلك في المدار الذي لا يفارق تحليل تجارب منهجية انخرطت في هذا الورش التاريخي بإيطاليا وبريطانيا والهند، ونقترح مناقشة مضامينه عبر ترسيمة موضوعاتية:

١ـ في مفهومي الهامش والهامشية

بدأ مفهوم الهامش والهامشية يخترق أدبيات الفكر الإنساني منذ النصف الثاني من القرن العشرين من خلال كتابات علماء الاجتماع والانتربولوجيين وحتى الجغرافيين، وأخذت هذه التحديدات المفاهيمية تتزين بعباءات متعددة، قياسا بفضفاضية مفهوم الهامش والهامشية وتشعبات تأويلاته، فهذا الجغرافي راسل على مشارف نهاية القرن التاسع عشر يُصبغه برداء المجال، ويعني به المجالات الهامشية، في مقابل المجالات المركزية، وذاك الأنتربولوجي كوبر يقصد به الثقافات المتناهية البساطة.

برز مفهوم الهامش عند المؤرخ البريطاني إريك هوبزباوم ذو النزعة الماركسية الواضحة ممزوجا بالصراع الطبقي، وهو يحيل بناظره إلى التاريخ من أسفل[٨]، واكتسى عند المفكر الايطالي أنطونيو غرامشي صاحب بُعدًا نظريا للدلالة عن هوية المُهَمَّش/ البروليتاري، أي تلك الجماعة من الناس التي تخضع لسيطرة طبقة نخبوية حاكمة، تحرمها الحق في المشاركة في صنع تاريخها وثقافتها كأفراد ناشطين داخل نفس الوطن، في مقابل ذلك نجد المؤرخ الهندي راناجيت غوها يُوظف مفهوم Subaltern لإعادة كتابة تاريخ الهند من زاوية جديدة، يبرز معها الدور الحقيقي للمهمشين في صنع تاريخ الهند زمن الاحتلال البريطاني[٩]. وعلى نحو ما يظهر، فقد خالف بذلك تنظيرات أنطونيو غرامشي القائلة بأن هيمنة النخب الحاكمة

على باقي فئات المجتمع تستند إلى محدد ثقافي، بالقول أن المُهمش يعيش عالما مستقلا عن عالم النخب[١٠]. وفي سياق آخر، سيعتبر عمل كياندرا باندي Gyanedra Pandy الموسوم بعنوان Subaltern Citizens إضافة نوعية في الكتابة التاريخية، من حيث أن عبارة مُهمش تحمل مسؤولية شديدة لكل كتابة تاريخية تروم الكشف عن الذوات المهمشة والمقموعة وأسباب تهميشها[١١].

على هذا النحو، تظهر دراسات المُهمش كقطيعة بين تاريخين: تاريخ السلطة والرأسمال والبنى الفوقية، وتاريخ خارج السلطة والرأسمال. تاريخ جديد بدأ ينتعش نسبيًا خارج فلكية السلطة ومداراتها، مستفيدًا من إرث المؤرخين الماركسيين البريطانيين تحديدا، ومن تبلور نظريات ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية، التي ستمكن من استعادة مختلف الفاعلين وإنصافهم في التاريخ. سيسهم سياق ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية في إعادة النظر في المركزية الأوربية، ولسوف يقتحم التاريخ حقل الهامشية في محاولة لاستعادة دور المهمشين في التاريخ، من أجل تفكيك الاستعمار وبناء الذات المستعمَرة التي ستنتعش بدراسات مختلفة وبمنظور مغاير، تغوص في ثنايا جزئيات خاصة تسكن دهاليز التاريخ وأقبيته المظلمة لحياة بعض الناس العاديين، إلى درجة سيصبح الفرد العادي له دلالته ودراميته مثله مثل تاريخ العظماء[١٢]، فالكتابة عن الحداد والطحان والفلاح والراعي ستغدو أكثر أهمية في فصل الالتباس عن عديد من قضايا التاريخ الأكثر عتمة.

٢ـ حوليات الجيل الثالث وتجديد الرؤية إلى التاريخ من أسفل

يتتبع الفصل الأول من الكتاب إرث أجيال الحوليات الثلاث من خلال كتابات الرواد الأوائل عن تاريخ المهمش والهامش، ويستقرأ استوغرافية الحولياتيين عبر ابتكار موضوعات جديدة حول تاريخ الذهنيات والإحساس والفكر والذاكرة الجماعية والممارسات الرمزية، تاريخ يتزيا برداء أنتربولوجي[١٣]. يرتسم هذا المنحى بشكل أدق في محاولة جون كلود سميث التي على ما تبدو شكلت ثورة كوبرنيكية في حقل الكتابة التاريخية وقتئذ، إذ نقلتها من برج عاجي نحو ملامسة القاع الاجتماعي كما عبرت بالقول إلين بارو، وكذلك مع فليب أرياس الذي اهتم بتاريخ الكثل التي ظلت على هامش السلطة، وبتاريخ الطفولة والعقليات والموت المُروض واللاَّمرئي.....، وقبلهم مؤسس الحوليات لوسيان فيفر من خلال بيوغرافياته المخيالية عن مارغاريت دونوفار وفرانسوا الأول وفرانسوا رابليه، وأيضا من خلال عمل إيمانويل لوروا لادوري حول راعي بسيط بمنطقة معزولة في منطقة أرييج العليا في قبل جبال البرانس[١٤].

ستنطبع فترة الخمسينيات من القرن الماضي بهيمنة بنيوية على الفكر الإنساني، وسيظهر أب البنيوية كلود ليفي ستراوس رفقة آخرين أمثال رومان جاكوبسون وجاك لاكان ولوي ألتوسير وميشيل فوكو وفرناند بروديل كمن يُشيدون صرح البنيوية في مختلف مداخلها المعرفية، وهم ينسفون قلعة وجودية سارتر وألبير كامو، وظاهراتية هوسرل، ولسوف تكتسي هذه الموضة الفكرية التي جذبت إليها مفكرين من مختلف بقاع العالم سمعة سيئة، نتيجة تشجنها المعرفي وإقصائها للفرد من مركز الاهتمام، وستعمق أحداث ثورة الشباب الفرنسي سنة ١٩٦٨ الشك في قدرة البنيوية على الصمود أمام إعصار تفكيكية جاك دريدا، وسيكولوجية جيل دولوز وفليب غاتاري. إعصار سيبشر ببداية أفول قلعة البنيوية، وسيمهد لعودة الفرد إلى سطح الفكر، من حيث هو ذات واعية تُعبر عن إدراكات المجتمع.

تراجعت موجة البنيوية، التي قدمت الذات قربانًا في حقل العلوم الانسانية[١٥]، وبعيدا عن ساحة الفكر الفرنسي، ارتسمت فجأة آفاق جديدة للتاريخ المنظور إليه من أسفل في كل من انجلترا وألمانيا وايطاليا، تحت وقع تأثير مدرسة شيكاغو الأمريكية التي كانت من قبل قد باشرت البحث في تاريخ الهجرة والجريمة منذ وقت مبكر.

٣ـ التاريخ من أسفل في الاستوغرافيا البريطانية

بعيدًا عن فرنسا، أثار كتاب هوارد زن "التاريخ الشعبي للولايات المتحدة من ١٤٩٢ إلى الآن"[١٦] جلبة كبيرة في الأوساط الرسمية الأمريكية، ربما لتزامنه مع سياق التوسع الأمريكي من جهة، ولكونه يفضح بشكل سافر تاريخ الإبادة والرق والظلم الاجتماعي، إلى حد جعلت إريك فورنر يعتبر الكتاب بمثابة نيگاتيف فوتوغرافي للتاريخ الأمريكي الرسمي.

يُعبر عن هذا المنحى أيضا كل من المؤرخ الانجليزي إدوارد طومسون الذي نشر سنة ١٩٨٥ مجلدا يضم عدة مقالات، بعنوان جامع "التاريخ من أسفل"، مؤسسًا لورش جديد بدأ يقتحم تدريجيا معاقل الكتابة التاريخية، ويسهم في تجددها، من جهته سيؤلف دومنيك جينوفيز كتابا بعنوان "العالم الذي صنعه العبيد" The World the Slaves، الذي ينكثب عن فئة العبيد السود كفئة إجتماعية محرومة إجتماعيا، وتبرز محاولة ثالثة لا تقل أهمية عن هؤلاء، مع المؤرخ الايطالي كارلو جينزبورغ في كتابه "الجبن والدود"، التي تمثل معاينة مجهرية ميكروسكوبية لقصة طحَّان عادي من منطقة فريولي شمال إيطاليا يدعى دومينيكو سكانديللو مشهور بلقب مينوتشي، الذي سيعدم بعد حكم قضائي صادر عن محاكم التفتيش[١٧].

من جهته، يتساءل المؤرخ البريطاني إريك هوبزباوم عن جدوائية كتابات تاريخية تقليدية لا يقرأها أحد باستثناء الأساتذة والطلبة من ذوي التخصص، حيث يشير إلى أن التاريخ من أسفل يبدأ مع نهاية القرن الثامن عشر كحقل دراسي، من خلال أعمال جول ميشليه حول الثورة الفرنسية، غير أن البداية الحقيقية لتشكل التاريخ من أسفل تعود حقيقة إلى النصف الثاني من القرن العشرين مع إدوارد طومسون، في كتابه The Making of the English Working Class، حول

تشكل الطبقة العاملة الانجليزية، الصادر في ستينيات القرن الماضي، تزامنا مع مراجعة فكرية وإديولوجية، قام بها اليسار البريطاني الجديد وهو يعلن لحظة الطلاق مع الاديولوجية الستالينية السوفياتية. يتضمن هذا الكتاب دعوة صريحة لتجاوز التاريخ النخبوي، والغوص في باطن المجتمعات، وفق ما أكدته أعداد مجلة الحاضر والماضي التي بصمت على توجه أنجلوساكسوني جديد في الكتابة التاريخية.[١٨]

والحال، تمثل اسهامات كل من كرسيتوفيل هيل[١٩] وإدوارد تومبسون[٢٠] وإريك هوبزباوم نواة أساسية في بلورة مشروع الدراسات الهامشية داخل بريطانيا، من خلال أعداد مجلة الماضي والحاضر، وتظهر هذه الاسهامات متجاوزة للتحليل الاقتصادي، قريبة من تحليل الحركات الاجتماعية الدنيا والمقهورين وعامة الناس باعتبارهم القوى التي تصنع العالم. وتكمن فرادة هذا التيار الجديد في كونه أعاد النظر في مفهومي البنية التحتية التي تتحدد بالبعد الاقتصادي والبنية الفوقية حيث توجد السياسة والثقافة والفنون والإيديولوجيا[٢١]، وفي رفض التفسير الأحادي المعتمد على الحتمية الاقتصادية وفكرة الغائية القائلة بحتمية تطور المجتمعات من الاقتصاد البدائي إلى اليوتوبيا الشيوعية مرورا بالعبودية والرأسمالية والاشتراكية. إنها رؤية تاريخية مُجددة تنطبع بتحليل ماركسي جديد ينفي فكرة الحتمية الاقتصادية. على هذا النحو رست سفينة مدرسة التاريخ من أسفل البريطانية.

٤ـ امتدادات التاريخ من أسفل

يتتبع الفصل الثاني من الكتاب امتدادات التاريخ من أسفل في الاستوغرافيات الأجنبية، من استعراض نماذج من مدرسة الميكرواستوريا الايطالية وتاريخ الحياة اليومية الألماني ودراسات التابع الهندية، مشاريع بدت جذابة وواعدة لعدة باحثين شباب، وهي تعلن عن انصهار التاريخ في أدوات التحليل الأنتربولوجي، وتسهم في فهم مغاير لوضع الأفراد والهامشيين، بعيدا عن فلكية صعود وأفول الأمم، وتبرز لقارئ متن هذه الاسهامات محاولة كل من ناتالي دافيز عن الفلاح برتراند رولز، وكارلو جينزبورغ عن الطحان مينوكوشيو، وايمانويل لوروا لادوري عن الراعي الفرنسي، وآلان كوربان عن الإسكافي بيناغوت.....الخ. إنها محاولات جديدة، تعود بالتاريخ إلى الذات[٢٢]، لفهم المجتمع من خلال سِير الأفراد، وبدت أهميته تتأتى من خلال تصاعد التاريخ الشفاهي[٢٣]، الذي يستند إلى إجراء المقابلات عند التحقيق لجمع المعلومات، ولعله استلهم كثيرا من شَكِّية علم الاجتماع الفرنسي، الذي أعاد النظر في عدد من براديغمات التفكير.

سيقتحم مصطلح الميكرواستوريا قاموس الكتابة التاريخية الايطالية[٢٤] مطلع الثمانينات من القرن العشرين، من خلال مجلة كراسات تاريخية (Quoderni Storici) وسلسلة ميكرواستوريا، ولسوف تعتبر في وقتها مقاربة تاريخية جديدة تعيد للفرادة وضعها الاعتباري، وتفصح عن معطيات لم تكن ملحوظة من قبل، بسبب تخفيض سلم المراقبة، فباستثمار مواضيع صغيرة الحجم، يمكننا حسب إفادة كريسيان دولاكورا استخلاص نتائج عامة ذات طبيعة ماكروانتربولوجية.[٢٥]

على نحو مشابه، سارت مدرسة الحياة اليومية الألمانية، وهي تعيد بعث لحظة النازية الألمانية إلى السطح، وتنبش في ماضي جرائمها الإنسانية، بتوجه ماركسي واضح للعيان، وتبدو مقاربة الألمان شديدة التأثر بتيارالأنتربولوجيا التأويلية، وبأهمية المحددات الثقافية في مسار التاريخ، وتعد أعمال كل من ريتشارد دولمن وهانس ميديك ولوطك رائدة في هذا السياق، وهي تنبش في تفاصيل محرقة الهولوكوست وتاريخ الامبريالية.

في آسيا سيقود رانانجيت غوها بمعية هيئة تحرير دراسات التابع سنة ١٩٨٨م[٢٦]، توجهًا تاريخيًا جديدًا تحت مسمى مدرسة التابع الهندية، في سياق المواجهة العلنية مع عرابي التاريخ النخبوي الهندي لمدرسة كامبريدج ومدرسة المؤرخين القوميين، وستوجه سهام نقدها إلى التحليل الماركسي التي ركز على فاعلية النخب في صناعة التاريخ، مُسهمة بذلك في تقديم قراءة جديدة للتاريخ الهندي بإطار نظري ومفاهيمي يستمد روحه من التاريخ من أسفل ونظريات ما بعد الحداثة والدراسات ما بعد الكولونيالية.

٥ـ التاريخ من أسفل وخطاب ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية

يقف الفصل الثالث من الكتاب عند نشأة السياق الثقافي والتاريخي لدراسات المهمش، حيث يتوقف عند اللحظات النظرية الكبرى التي واكبت ميلاد خطاب ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية لكل من إدوارد سعيد وديبيش شاكرابارتي ونيتشه وهابرماس ويتنغشتاين، عائدًا بسردية التأصيل التاريخي لمفهوم ما بعد الحداثة إلى سبعينيات القرن العشرين، من خلال أعمال كل من فرانسوا ليوتار وجاك دريدا وميشيل فوكو وجيل دولوز وآخرين.

تفصح هذه الاستعادة للنصوص المؤسسة لخطاب ما بعد الحداثة عن وضع سردية الحداثة قيد التحقيق والنقد والمراجعة[٢٧]، وإدانة العقل البشري، وكره أي مشروع يستهدف تحرير الإنسان عبر تحريك قوى التكنولوجيا والعلم والعقل[٢٨]، ونقد إمبريالية التنوير، على نحو ما يلمسه القارئ في تفكيكية جاك دريدا. وفق نفس الإطار سينطبع العالم الثالث بدراسات مرجعية تنتقد الاستشراق والهيمنة الامبريالية في كتابات فرانز فانون وادوارد سعيد وألبير ميمي وليوبولد سيدار سانغور والمهدي بن بركة، مُحاولة أن تُعري عن غطاء الاستعمار، فاضحة لسياسته الاستعبادية. هذا المنعطف الثقافي كان له إسهام بارز في تبلور دراسات المهمش بإيعاز من الأبحاث المجالية التي أشرفت عليها مدرسة شيكاغو الأمريكية، ومن تأويلية كليفورد غيرتز التي استلهمت علامات ورموز ماكس

فيبر، واعتبرت أن الحياة الاجتماعية للأفراد تخضع لنظام من العلامات والرموز التي يجب تأويلها وتفسيرها.[٢٩]

٦ـ نماذج وأمثلة لاستعمالات التاريخ من أسفل

ينحو الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب منحى إجرائي في استعمالات ومقاربات مختلفة لتاريخ الأفراد والجماعات، مُتوقفا عند ثلاث نماذج بيوغرافية لمهمشين من التاريخ الرسمي لكل من روجر كيسمنت وغريغوري راسبوتين ومحمد بن عمر الأحرش.

سيثير الكاتب البيروفي ماريو بارغاس يوسا في روايته "حلم السلتي" التي اكتشفها من خلال قراءة سيرة جوزيف كونراد "في قلب الظلام"، الإهتمام إلى سيرة روجر كسيمنت الصاخبة، وهو يلفت الاهتمام إلى سيرة رجل رافقها غير قليل من جدل بينه وبين أجهزة المخابرات البريطانية. يظهر روجر كيسمنت في رواية حلم السلتي كمُصور لحجم الكارثة الاستعمارية، وكمناضل من أجل حرية شعوب الكونغو والبيرو واستقلال ايرلندا من بريطانيا، وكمدافع عن أحقية الثقافات البدائية في الوجود رغم الاختلاف[٣٠]، مُخلفًا بهذه المواقف مصيرًا مجهولاً وركامًا من الشائعات التي طالت سيرته التاريخية.[٣١]

من جهته سيسبر كولن ولسن في روايته "راسبوتين وسقوط القياصرة" الغموض الذي اكتنف حياة يفيموفيتش غريغوري راسبوتين بروسيا قبل الثورة، كشخصية أسطورية في التاريخ الروسي المعاصر، تشفي من بعض أمراض العصر كمرض الهيموفيليا، ولسوف تُظهره ثورة البلاشفة بمظهر الخليع والفاجر واللص والسكير، إلى حد أصبحت الراسبوتينية تعني الحركة الشهوانية المنتشية بالرقص والإثارة والدين[٣٢]. هي رواية تظهر كيف أن التاريخ يمكنه أن يحط من قدر الناس ويجعلهم في الحضيض، كما يمكنه أن يرفعهم إلى درجة القديسين.

على نحو مماثل، سيصرف المفكر المغربي عبد الله ساعف جهده في اقتحام لعبة كتابة السيرة[٣٣] من خلال عمله على بيوغرافية محمد بن عمر الأحرش، وهو جنرال مغربي شارك في حرب الفيتنام، والذي سيخصص له سيرة بعنوان "أنه ما" وسط لُجَّة غامضة ومضطربة عن مسار هذا الرجل، وسيعتمد عبد الله ساعف على شهادات زوجة الأحرش كاميليا وأيضا على إفادات الفرنسي جورج بودايل من أجل كشف خبايا تتعلق بحرب الفيتنام وحياته السياسية والنقابية المغربية زمن الاستقلال إلى موته في ظروف قاسية. ينتقل هذا الفصل بالقارئ إلى تحديد مفهوم الفقر في المدينة، عبر منعطف الأنتربولوجيا من مبحث نظري يهتم بتحليل البنى الريفية إلى مبحث يرصد ظواهر المدينة، بتأثير مباشر من مدرسة شيكاغو الأمريكية. هذا التحول سيثمر ولادة ما يمكن أن نسميه بـ "النظرية التفاعلية" أو "الملاحظة التشاركية" كمقاربة سوسيولوجية تتبنى الفرد كوحدة للتحليل. وهو ما يظهر من خلال تحليلات أوسكار لويس عن أطفال سانشيز[٣٤].

يختتم هذا الفصل باستعراض استوغرافية تاريخ المهمشين في سياق العالم الإسلامي، من خلال تجربة المؤرخ المصري محمود إسماعيل، وتجربة المؤرخ المغربي ابراهيم القادري بوتشيش، اللتان تضمنتا تطبيقًا حول التاريخ الوسيط، للفئات المهمشة في الغرب الاسلامي بِعُدَّة منهجية وحس تاريخي[٣٥]، لا يخلوان من نباهة تاريخية من حيث الرؤية والتصور والتفسير والتركيب.

خاتمة

تبدو محاولة الباحثان خالد اليعقوبي وخالد طحطح في اقتحام ورش التاريخ من أسفل كمنهج وكتطبيق حلقة من حلقات تحديث الكتابة التاريخية المغاربية، ونقلة نوعية في زعزعة بعض الثوابت الذهنية والتاريخية لقبيلة المؤرخين، بل وتمرد علمي ومنهجي على كرنوزوفيات الكتابة التاريخية التقليدية، فإذا كانت مدرسة التاريخ الجديد اقتحمت مجال المغيبين والهامشيين من خلال دراسة المتروك من المصادر والمُغيب من الفئات الاجتماعية، كتاريخ المجانين وتاريخ الرعاة وتاريخ اللصوص والمومسات والساحرات، وهي مواضيع كانت توصف في الماضي بأنها مواضيع خسيسة مقابل بالمواضيع النفيسة[٣٦].

دخل البحث التاريخي اليوم بفضل المدارس التاريخية الجديدة بيوت الفقراء، وسكن نمط عيشهم، واقترب من ذهنيات من هم تحت، مع جون كلود سميث الذي تناول مسألة الهامشيين في التاريخ اعتمادًا على أوليس روبير. وسيشكل السياق الثقافي والتاريخي لمجتمعات غير فرنسية أرضية حاضنة للتاريخ من أسفل، في كل من إيطاليا بريطانيا والهند، وهي تجارب استوغرافية أعادت تشكيل الواقعة التاريخية برؤية مغايرة تستنطق التفاصيل، وتقف عند الجزئيات خصوصًا.

هذه الرؤية الحادثة على مستوى المناهج والكتابة التاريخية بالخارج تستقرأ منجزنا الاستوغرافي على نحو مثير للغاية، حيث ما زلنا لم ننزع بعد صفة القداسة عن التاريخ من أعلى، ولم ننظر إلى التاريخ على أساس أنه علم يتجدد بتجدد الأسئلة والمقاربات والمفاهيم.

الهوامش:

(١) جيرار نورابيل، مؤرخ متخصص في تاريخ الهجرة وتاريخ العمال، من أهم أعماله، حول "أزمة التاريخ"، "التفكير مع والتفكير ضد"، "مسيرة مؤرخ"، "البوتقة السياسية"، "قول الحقيقة في وجه السلطة"، "العنصرية ومسؤولية النخبة"، "الأبناء الملعونون للجمهورية"، للتوسع أكثر يرجى الاطلاع على نص الحوار الذي أجرته مؤسسة مؤمنون بلا حدود، شتنبر ٢٠١٦.

(٢) أثار صدور كتاب "التاريخ المفتث" لفرانسوا دوس جلبة قوية داخل الوسط التاريخي الفرنسي، وعبر عن انشقاقات ابستمولوجية بخصوص تصور التاريخ والكتابة التاريخية بدت تطفو على السطح، كما عبر عن وجود خلافات بنيوية عميقة لورثة عرش لوسيان فيفر ومارك بلوك، وكشف عن بداية تصدع قلعة الحوليات الفرنسية، وتفتت التاريخ الى دراسة مواضيع ميكرو تاريخية، ذات طابع انتربولوجي، فهل يا ترى يتعلق الأمر بموضة عابرة؟ أم باختلاف بنيوي داخل صرح الحوليات؟ هل هي عودة مؤقتة إلى مواضيع أغفلتها الحوليات؟ هل هو حنين إلى تاريخ الفرد، ومعه التاريخ السياسي؟ ماذا ستقدم السير الفردية والجماعية لأشخاص بطوليين وهامشيين لكشف خبايا التاريخ، ولإعادة ترتيب حلقات الماضي المركب؟ للتوسع في هذه النقطة يرجى قراءة كتاب خالد طحطح، **البيوغرافيا والتاريخ**، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

(٣) صاحب هذه العودة الابستمولوجية التي قادها مؤرخون، فلاسفة، أدباء، وأحيانًا أنتربولوجيون، رجة قوية مست قلعة الحوليات الحصينة، في فترة السبعينات من القرن الماضي، التي بدأت في التصدع، بعد مرحلة الهيمنة على المشهد الثقافي والإعلامي بفرنسا منذ نهاية ثورة الشباب الفرنسي ١٩٦٨م. هذه الرجة جعلت سادن مدرسة الحوليات جاك لوغوف في كتابه "التاريخ الجديد" يوجه سهام نقده نحو مريدي جنس البيوغرافيا التاريخية والسرد التاريخي، ومرتدي التاريخ الشمولي، مشهرا عداءه صوب مناصري هذا النوع من التأليف، حيث شبههم بـ "المهاجرين الذين عادوا بعد الثورة الفرنسية دون أن يتعلموا جديدًا أو ينسوا قديمًا"، إنهم بتعبيره دائمًا يشكلون "عودة غامضة" إلى مواضيع تاريخية قديمة، تحركها نوازع الاديولوجيا، وروح الانتقام من الحوليات، قصد هدم صرح الحوليات العتيد، التي استطاعت في فترات سابقة، أن تعبر على مقدرة فائقة في التكيف مع مختلف المنعرجات الابستمولوجية التي كانت تواجهها.

(4) Eric Hobsbawm, On History, Weidenfeld and Nicolson, London, 1997.

(٥) عبد الغفور خوى، **أبعاد التاريخ، الإنسان، الزمان، المكان**، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.

(6) Alain Corbin, le monde retrouve de Louis François Pinagot: sur les traces d'un inconnu (1798- 1876).

(٧) تجدر الإشارة إلى أن رواد الجيل الثاني لمدرسة الحوليات ناصب العداء لجنس البيوغرافيا، واعتبروها جثة لا يجب إحياؤها من جديد، بحجة قلة الضبط، الإفراط في الخيال والتخييل، والانتماء للتاريخ السردي المرتبط بالتوجه الوضعاني لمدرسة شارل سينوبوس وفيكتور لانغلوا، غير أن هذا التوجه، سرعان ما سيخفت مع بداية الثمانينات من القرن الماضي، بعد تألق عدة بيوغرافيات تاريخية، صاغها باحثون من تخصصات مختلفة، علماء اجتماع، باحثون نفسانيون، أنتربولوجيون، اتنولوجيون، كما مؤرخون. فهل تمثل هذه العودة رِدَّة على مكتسبات الحوليات؟ أم استجابة لطلبات سوق القراءة، ومؤسسات النشر؟ أم اقتناع ببؤس التاريخ البنيوي وحجبه لقضايا تاريخية رئيسية، وانتصارا لتيار الوجودية الذي ظل صاحبها مقبورا داخل الوسط الجامعي الفرنسي؟، انظر الى خالد طحطح، **البيوغرافيا والتاريخ**، مرجع سابق.

(٨) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل، في تاريخ الهامش والمهمش**، سلسلة شرفات ٨١، منشورات الزمن، نونبر ٢٠١٦، ص١٢.

(٩) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل، في تاريخ الهامش والمهمش**، مرجع سابق، ص ١٤.

(١٠) رانانجيت غوها يعتبر المانفيستو المؤسس لمدرسة التابع الهندية، أصدر مقالاً بعنوان:

"One Some Aspects of the Historiography of Colonial India"

ضمن مجلة

Writings On Indian History and society: Subaltern Studies

سنة ١٩٨٢، على أنه يجب التأكيد على أن رانانجيت غوها استطاع أن ينحت مفهومًا خاصًا بمدرسة التابع الهندية رغم تأثره مدرسة التاريخ من أسفل البريطانية، ومختلفًا عن المفهوم الفرنسي لجون كلود شميت الذي يعتبر التهميش صناعة اجتماعية، بينما عند غوها صناعة نخبوية.

(١١) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ١٩.

(١٢) جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، من تقديم الطبعة الأولى، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٥٩.

(١٣) يظهر افتتان الجيل الثالث من مدرسة الحوليات بمناهج وأدوات التحليل الأنتربولوجي واضحًا في جل الكتابات التاريخية منذ مطلع السبعينات من القرن العشرين، حيث تغدو الملاحظة الأساسية التي يلاحظها المتتبع للمتن الاستوغرافي خلال هذه اللحظة هي انصهار التاريخ في الانتربولوجيا، ويشكل كتاب ناتان واشتل حلقة أساسية ضمن حلقة هذا الانصهار، من خلال نظرة مهزومي الهنود البيرو إزاء الغزو الاسباني، الذي أعاد الاعتبار للتاريخ المحلي وذاكرة الشعوب وانتشال جزء من تاريخ شعب الإنكا المنسي وتقديم فترة الغزو الاسباني، أنظر:

Nathan Watchel, la vision des vaincus, les indiens de Peru devant la conquête espagnole 1530-1570 Gallimard Paris 1971.

(١٤) تشكل هذه المساهمة علامة فارقة في الكتابة التاريخية إذ انطلقت من مصادر جديدة وخاصةً سجلات محاكم التفتيش التي حفظها جاك فورنييه أسقف بواتييه أثناء التحقيقات.

(١٥) باسكال جوتشيل وايمانويل لواييه، **تاريخ فرنسا الثقافي**، من العصر الجميل إلى أيامنا هذه، ترجمة مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الاولى، ٢٠١١، ص١٩.

(١٦) هوارد زن، **التاريخ الشعبي للولايات المتحدة الامريكية**، ترجمة شعبان مكاوي، في جزءين، الطبعة الثانية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.

(١٧) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**: في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ٤٧.

(١٨) نفسه، ص ٥٣.

(١٩) كريستوفيل هيل أنجز عملاً عن الحرب الأهلية لسنة ١٦٤٠ التي اعتبرها لم تكن مجرد جدال برلماني وديني بقدر ما هي ردة فعل ثورية ضد تطور النظام الرأسمالي، وتبرز قيمته في استناده على أهمية الأفكار ودورها في تشكيل التاريخ، متجاوزا التحليل الاقتصادي المحض والنظرة الضيقة لصراع الطبقات.

(٢٠) ادوارد تومبسون أحدث رجة اثنوغرافية قوية في تاريخ القرن التاسع عشر البريطاني، وتاريخ الثورة الصناعية، وتظهر تأويلاته متحررة من نظرية الحتمية الجغرافية، ومعانقة للوجه الانساني لتجربة الطبقة العاملة الانجليزية، مُنبها إلى دور المحدد الثقافي والتقاليد الشعبية في تشكيل الطبقة الانجليزية، عاملا على أنسنة الماركسية برؤية ماركسية جديدة ومغايرة تضع الفعل التاريخي بيد الأفراد.

(٢١) نفسه، ص ٥٧.

(٢٢) استبعدت الذات بشكل ممقوت في كتابات رائد البنيوية كلود ليفي ستراوس، حيث أظهر كتابه مدارات حزينة كرهًا شديدًا للذات والنزعة الانسانية في سياق نظرية موت الانسان، وهو وضع سيجعل بول ريكور يقصف البنيوية بالقول أنها محاولة تعال من دون ذات، وسيحتم على ميشيل فوكو العودة إلى التيار المنادي بالعودة إلى الذات في كتبه حول تاريخ الجنسانية وتاريخ الجنون.

(٢٣) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**: في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص٦٣.

(٢٤) من أهم الأبحاث التي ستسم مدرسة الميكرواستوريا الايطالية خلال هذه اللحظة نذكر الجبن والدود: عالم طحان في القرن السادس عشر لكارلو كينزبورغ، والسلطة في القرية، مهنة مغرم في البيمونت في القرن السادس عشر لجيوفاني ليفي.

(25) Christian Delacroix, «Echelle» Historiographies 2, Concepts et débats, Folio histoire, Editions, Gallimard, 2010.

(٢٦) تألفت مدرسة التابع الهندية من رانانجيت غوها وشهيد أمين وديفيد أرنولد وغواتام بادرا وديبيش شاكرابارتي ودفيد هاريدمان وسوديبتا كافيراج وشايل مايارام.

(٢٧) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٢٨) نفسه، ص ١٠٠.

(٢٩) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٣٠) نفسه، ص ١٢٤.

(٣١) ناضل روجر كيسمنت من أجل استقلال ايرلندا عن بريطانيا، رافعا شعار عيسى معنا، وهو توجه كان كافيا لأن يحكم عليه بتهمة الخيانة العظمى، وبتهمة المثلية الجنسية التي ستشوه من صورته لدى الرأي العام البريطاني، ولعل ما يزيد من الأمر غرابة يومياته السوداء التي أثارت ولا زالت تثير غير قليل من جدل، هل هي موجودة حقًا؟ أم أنها محض افتراء اختلقتها الأجهزة السرية البريطانية لضرب صورته الرمزية لدى الجماهير.

(٣٢) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص١٣٤.

(٣٣) تنير السير التاريخية الجديدة تاريخ الأعلام من خلال إبراز البنى الاجتماعية التي أفرزتها، وتدرسهم من خلال الوظائف التي تقلدوها، والأدوار التي أدوها من دون الاقتصار على حصرهم في التفسيرات الاجتماعية، نفسه، ص٤٧.

(34)Oscar Lewis, Les enfants de Sanchez, autobiographie d'une famille mexicaine, traduit de l'Anglais par Céline Zens, Edition, Gallimard, paris, 1963.

(٣٥) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٣٦) جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، من تقديم الطبعة الأولى، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص١٣.